

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المناعي وعصره

يتميز العصر الذي عاش فيه المناعي (م. 1857) ، وهو العصر الذي سبق اعلان الحماية الفرنسية على تونس (1881) بولاية وال من أبرز الولاة الذين حكموا تونس في العهد الحسيني ، وهو المشير الاول احمد باي الذي وجه اليه المناعي رسالته ، وقد تولى الحكم على تونس ما يقرب من عشرين سنة ، منذ انتصابه على العرش سنة 1837 ، الى سنة وفاته 1855 ، فطبعها بطابع عصري ، ووجهها صوب تيار الحضارة الغربية (1) وحرص على دعم أركان الحياة الثقافية بها ، وارساء أسسها الفكرية التي أثرت في حياة البلاد فكريا واجتماعيا (2) .

ويحتل أحمد باي مكانة مرموقة بين البايات ، بداية من مؤسس الاسرة الحسينية سنة 1705 ، الى نهايتها وعلان الجمهورية محلها يوم 25 جويلية 1957 . وقد حكمت هذه الاسرة تونس مدة مائتين واثنين وخمسين سنة ، وتوالى فيها على الحكم تسعة عشر بايا (3) .

J. Ganiage : Les Origines du Protectorat Français en Tunisie PUF - Paris 1959. Publication de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis p. : 177 sq.

(1) انظر :

(2) انظر : ح ح عبد الوهاب : « خلاصة تاريخ تونس » ط 1336 خاصة ص 177 - 181 .

(3) محمد الصالح مزالي : « الوارثة على العرش الحسيني » ص 8 - 9 الدار التونسية للنشر . 1969 .

فكان هذا «العصر عصرا علميا ، ازدهر فيه الادب بفنيه شعرا
ونثرا (I2) .

ويمكن أن نعد أهم حدث ثقافي فيه هو افتتاح مدرسة باردو
الحربية يوم 5 مارس 1840 (I3) ، وهي مدرسة عصرية جلب لها
الباي جماعة من الاساتذة الاجانب من ايطاليا وفرنسا وانقلترا ،
وأدخل فيها تدريس العلوم العصرية والكونية من رياضيات
وطبيعيات ، ومدفعية ومختلف الفنون الحربية ، واللغات كالفرنسية
والايطالية ، وولى فيها تدريس العربية الشيخ المصلح محمود قابادو
(I802 - I861) (I4) ، وقد مكّنه منصبه التعليمي في المدرسة الحربية
من أن يبت في اطارات الجيش التونسي الوعى الدينى وأن يحض طلبته
على تلقي العلوم الكونية والرياضية (I5) .

وقد بعثت هذه المدرسة بدماء جديدة في شرايين الثقافة التونسية
اذ كانت مركزا لترجمة الكتب الفنية ، ونقطة التقاء بين ثقافة الغرب
العصرية ، وثقافة تونس التقليدية ، والتقى فيها اساتذة اجانب
باساتذة تونسيين وتلامذة .

- (I2) توجد كئشات عديدة بدار الكتب الوطنية تحفل بلاشمار الراجعة الى هذا
العهد لا تزال مخطوطة ، وهناك ايضا دواوين مازالت تنتظر التحقيق
والطببع . جمع بعضها محمد السنوسى فى اجزاء .
(I3) الاتحاف : ج 4 ، 36 - 37 .
(I4) نفس المرجع .
(I5) انظر الجزء 2 من « ديوان محمود قابادو » ، تونس - د . ت . : ص 33 - 60 ؛
ديباجة لترجمة تاليف فرنسى فى اصول الحرب ، ذكر فيها قابادو نظريته
الاصلاحية وآراءه الجديدة .

ويذكرنا دور المشير الاول فى تاريخ تونس بدور معاصره ، والى
مصر ، محمد على (م . 1849) (4) اذ « أخذت به الحكومة فى طور
جديد ، وكانت له همة عظيمة ، اكبر من حالة القطر » (5) .

ومن الاصلاحات التى أدخلها على البلاد ، اصلاح التعليم بالجامع
الاعظم ، رتب به المدرسين ترتيبا محكما (6) ، وأنشأ فيه المكتبة
الاحمدية ، وأنزاهها بالكتب النفيسة (7) .

وقد أثر أحمد باى فى حياة البلاد الفكرية ، اذ كان يحب العلم ،
ويشجع على طلبه ، ويعظم العلماء ويعرف منازلهم (8) ، وكان ولوعا
خاصة بفن التاريخ وبالاخص بمقدمة ابن خلدون (9) ، هنا جعل
كثيرا من الادباء يهتمون بهذا الفن ، وينشطون للكتابة التاريخية ،
ويولون المقدمة عناية فائقة (10) ، وحتى المناعى صاحب الرسالة ،
فانه لم يسلم من ذلك التأثير ، ونراه يستشهد بابن خلدون (11) ،
ويتأثر بمنطقه فى ادلائه بالحجج التى من شأنها أن تدحض ادعاءات
أعدائه .

- (4) نظر : جان جانيانج : نفس المرجع : ص 177 .
(5) محمد بريم الخامس : «صفوة الاعتبار» ج 2 ، 6 .
(6) « الاتحاف » : ج 4 ، 65 .
(7) نفس المرجع : ص 49 .
(8) نفس المرجع : ص 179 .
(9) نفس المرجع : ص 179 : « واذا ذكرت له مقدمة ابن خلدون يقول لى : تعرفها
ويستشهد منها بما يوافق غرضه » .
(10) نذكر على سبيل المثال بعض المؤرخين التونسيين الذين ظهروا فى القرن التاسع
عشر : احمد ابن ابي الضياف « اتحاف اهل الزمان ، باخبار ملوك تونس وعهدة
الامان » .
الباجى المسعودى « الخلاصة النقية فى امراء الفريفة » .
محمد ابن سلامة « العقد المنضد فى اخبار المشير احمد » وهو مخطوط .
(11) « رسالة المناعى » : ص 96 .

ويحدثنا صاحب الاتحاف ، أحمد بن أبي الضياف ، عن هذا
المعهد فيقول (I6) :

« رتب الباي مكتبا حربيا بباردو ، وجعله في صرايته التي انتقل
منها الى قصره الجديد ، لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم
كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة الفرنسية ،
لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلي
كالي قارس ، من اعيان ايطاليا . وجعل به معلما للقرآن ومدرسا
لعلوم العربية وما يلزم ديانة . وأول مدرس به العالم الشريف الاديب
البلغ أبو الثناء محمود قابادو . بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه
ضرورة في غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنسية وبما
يلزم العسكر من العلوم العقلية » .

وكان الباي يزور بنفسه تلامذة هذه المدرسة « يرغبهم في اكتساب
المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقي ، وينفرهم من معرفة
الجهل ... » (I7) .

وقد شهد ابن أبي الضياف نفسه بازدهار الحياة الثقافية بهذا
العصر رغم نقمته على الباي ، وانتقاده النريع لسياسته وحكمه المطلق
غير المقيّد بشرع أو شعوري ، وتصرفه الإقتصادي المقيت ،
المزري (I8) .

(I6) الاتحاف : ج 4 ، 36 - 37 .
(I7) نفس المراجع .
(I8) انظر الجزء 4 من « الاتحاف » ، و « العنوان » ج 2 ، 130 - 131 .

قال ابن أبي الضياف في :
« وفي هذه الايام ، نفق سوق العلم ، وتجدد شبابه ، وسيل
سيله ، وعب عبايه ، وانفتح للاجتهد بايه ، وتظاهرت اسبابه ،
واشرقت بافق هذه الحاضرة نجوم وأهله ، هم الآن شموس وبدور ،
تتجمل بها المحافل والبدور » (I9) .

وثمة ظاهرة اخرى نلاحظها بهذا العصر وهي بروز الترف
والتبذير والانفاق باسراف على اللباس والعيش والملذات ، والتأنق في
المظاهر (20) .

يقول ابن أبي الضياف : « ومن أيامه ابتداء التأنق
والترف في الكرايس والابنية الضخمة ، وغير ذلك مما يدعو ترف
الحضارة ، والناس على دين أمرائهم [. . .] وجعل نواشين
الافتخار » (21) .

وفعلا ، فقد سلك الباي ومن تبعه من الوزراء والكتاب ورجال
القصر ، سياسة التبذير والاسراف ، وهي سياسة لا تتناسب مع
موارد الدولة (22) .

(I9) « الاتحاف » ج 4 ، ص 67 .
(20) E I 2 فصل أحمد باي .
(21) « الاتحاف » ج 4 ، ص 167 .
(22) E I 2 فصل أحمد باي .

وتأزم في الميزانية ، ويرجع هذا الامر الى أن الباي قد استنفد أموال الدولة في جمعه للعسكر النظامي وترتيبه وتدريبه، وانفاقه المسرف على القصور والخاصة مما أجحف بدخل المملكة وخرجها (28) ، ومما جعله يحدث ضرائب ومكوسا ، تعسف العمال وملتزموا الاداءات والوكلاء أيما تعسف في جبايتها . ويصور لنا الجزء الرابع من «الاتحاف» تصويرا دقيقا ما منى به الشعب في كامل التراب التونسي من ظلم وحيف وقهر .

وقد اتهم المناعي بالاسراف (23) ، وليس بالبعيد ان تكون هذه التهمة شائعة في أوساط الاعيان ، والمقرين من الباي ، اذ تعود الكثير منهم على اثقال أنفسهم بالديون ليسندوا هذه الرغبة (24) . وتوجد ظاهرة أخرى بهذا العصر وهي ظاهرة تعدد المجالس الادبية كانت تنتظم في قصور الامير أو في قصور الخاصة .

فقد بدأ الباي عهده ، منذ الايام الاولى من ولايته ، ببناء القصور الفخمة بباردو (25) وحلق الوادي ، والمحمدية أنفق فيها الاموال الطائلة التي استنفدت معين الخزينة العامة ، وتألفت بمجالس الامير في هذه القصور جماعة يأنس اليها الباي ويتألفها (26) تلتقى في اجتماعات أدبية وقتية وغنائية ، وكثيرا ما كانت تصل اليه فيها اللوشايات والسعائيات ولكنها كانت لا تحركه (27) .

ولئن كانت رسالة المناعي صدى لهذا العصر، فهي خاصة مرآة لما كانت تتخبط فيه الدولة والبلاد من ضيق مالي ، وتدهور اقتصادي ،

- (23) انظر « رسالة المناعي » : ص 143 .
(24) نفس المرجع . ص 124 ، كانت الديون آفة ذلك العصر ، وكان الغرماء كثيرا ما يطلبون من الدولة الدين أو تفليس المدين وسجنه . انظر اعلان فلسة حسين خوجة « الاتحاف » ج 4 ، ص 38 ، حتى ولى العهد لم يسلم من الديون . نجد الباي احمد في مرضه يدفع مالا ذا بال في دين على ابن عمه وولي عهده ، للوافدين من التجار : (نفس المرجع ، ص 167) .
(25) « الاتحاف » ج 4 . ص 16 .
(26) نفس المرجع ص 175 .
(27) نفس المرجع ص 169 .

(28) نفس المرجع ص 169 .

حياة المناعي

ليس لنا ترجمات لحياة المناعي سوى نصين قصيرين : نص وارد في الجزء الثامن من الاتحاف (29) ، وهي ترجمة قصيرة ، موجزة ، لا تتجاوز السطور القليلة ، غمط فيها ابن أبي الضياف حقه ، بينما خص الوالد بترجمة طويلة ، ضافية ، ذكر فيها أساتذته وحدثنا عنه باطناب (30) . ونص آخر جاء في مجمع اللواوين التونسية لمحمد بن عثمان السنوسي وهو مخطوط (31) ، ولهذا النص أهميته لأن صاحبه يعد المناعي من أهم شعراء تونس في القرن الماضي وذلك برصفه بينهم ، ومن جهة أخرى فهو يشير قضايا كثيرة ، اذ يتهم المناعي بتهم عديدة كالمجون وسلطة اللسان وانتحال الشعر ! . . .

أما الرسالة الادبية التي نحققها ونعلق عليها ، فلا نجد لها ذكرا في أي مرجع من المراجع ، فحتى المنتخبات الادبية التي جاءت بعده لم تتعرض لها أو لصاحبها ، ونعجب للرجوم حسن حسنى عبد الوهاب كيف لم يذكرها مع أن له منها مخطوطين .

وصاحب الرسالة أصله من اولاد مناع من دريد (32) ، واسمه

محمد وأبوه محمد أيضا ، ووجه سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله كعادة تكتية الاسماء في القديم ، ويدعى حمدة تمييزا له عن أبيه ، أو ختي محمد حمدة كما في بعض الكنشات (33) . ونجد المؤلف يثبت اسمه في آخر الرسالة هكذا : « والسلام من [. . .] محمد بن محمد المناعي » (34) .

لم يذكر أحد تاريخ ولادته ، أما وفاته فقد ضبطها ابن أبي الضياف بشعبان من سنة 1273 (مارس - أبريل 1857) (35) . ولم يذكر السنوسي سنة الوفاة . ونحن نعتقد ان هذه السنة صحيحة لأن المناعي من اقرباء ابن أبي الضياف وزوج اخته ولا يمكن لصاحب الاتحاف الحريص على ضبط الوفيات ان يخطئ في تدقيق سنة وفاة صهره .

فالمؤلف اذن قد عاش النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وسبع سنين من النصف الثاني ، عاش جلها في عهد المشير الاول أحمد باي (م. 1855) وعامين في مدة المشير الثاني محمد باي (م. 1859) . وتوفي المناعي قبل اندلاع ثورة ابن غداهم سنة 1864 (36) ، وقد عاصر بوادرها ، وشاهد بنفسه اسبابها ، وعان بداية الفوضى التي سادت بالبلاد فيما بعد واستفحل أمرها وعانى منها في حياته معاناة مرة .

(33) انظر « كئش الرياحي » (الفهرس) . رقم 18-906 .

(34) انظر « رسالة المناعي » ص 160 .

(35) « الاتحاف » ج 8 ، 103 .

(29) « الاتحاف » ج 8 ، 103 .

(30) نفس المرجع : ج 7 ، 164 ، 166 .

(31) « مجمع اللواوين » ج 1 ، ص 154 - 163 ، مخطوط رقم 16-628 .

(32) « الاتحاف » ج 7 ، 164 .

فقد عرف المناعي أسباب افلاس الدولة من عبث المتصرفين في أموال الدولة ، وسرقاتهم ، ونهبهم المقيت ، وتراكم الديون على الخزينة العامة ، وارهاق كاهل المواطنين بالضرائب والمكوس العديدة والمتنوعة (37) ، والتي تفننوا في تنويعها وتفريعها وتعميمها ، ونقرأ صداها في الرسالة ، لأنها لم تكن الا وليدة لتلك البيئة الفاسدة التي اشتد فيها التعدي على الحقوق العامة ، وكثرت الشكاوى من المقربين الى البلاط ، وعم البلاد شر العمال والوكلاء والمترمين والنواب (38) . اذ سلم لهم الباي مقاليد الامور ، وتناقل عن حيفهم وعسفهم ، ولحق اذاهم المناعي ، فكتب يشكوهم . ويندد بهم ، يفور عليهم سخطا وحقدا وثورة ، رغم مكانتهم المرموقة ، وما يتمتعون به من جاه ، وقوة ، وبطش ، وكان المناعي يعبر في هجائهم ونقمتهم عليهم عما في قرارة نفوس الشعب ، فكان اللسان الصادق ، المؤثر الذي يصور غضب الشعب ، ونقمته ، وطموحه .

ونحن لا نشك في أن أصحاب النفوذ وذوى الجاه في ذلك الوقت ومن بعده قد تحالفوا على اسكات هذا الصوت الناشز ، وقرروا تجاهله ، وضربوا عليه جدارا من الصمت والنسيان ، فلا نعلم شيئا عن حياة المناعي سوى أنه نشأ بين يدي أبيه فأحسن تربيته (39) ،

(36) انظر : جان جانباچ : الكتاب المذكور ص 217 - 274 . وترجم هذا الفصل الخاص بثورة علي بن غدام بلغة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية ونشر سنة 1965 . (الدار التونسية للنشر) .
(37) « الصفوة » ج 2 ، 4 ، « والاتعاف » ج 4 .
(38) « الاتعاف » ج 4 ، 144 .

وانه حفظ كثيرا من المتون والشروح وقراً على أبيه وعلى اعيان من المدرسين ولكن لا نعلم من هم ولا ما هي هذه المتون والشروح .

وتعلم كذلك انه دخل ديوان الانشاء في حياة أبيه (40) في عهد حسين باي (م. 1835) ، ولكن نجعل الوظائف التي تقلدها فيه ، خاصة وأن ديوان الانشاء يعتمد خططا عديدة منها الكتابة والحساب (41) ، ونجد في الرسالة اشارات عديدة الى ما تولاه المناعي من وظائف وخدم برئاسة باش كاتب محمد الاصرم (م. 1861) (42) قد أنعم بها عليه هذا الاخير ، لكنه خرج منها مطرودا .

فقد كان مكلفا بمداخيل الولايات ، بقسم الحسابات وسرعان ما رمى فيه بتهمة السرقة والنهب وبصرف ما تحصل من فاضل المال من الولايات في تسديد بعض ديونه ما مقداره نحو الالفى ريال وفي تبذيرها في لذاته وامتعه (43) .

كما اننا نفيد من الرسالة ، انه كان مكلفا بالمساجد اذ كانت بيده اوامرها ، ولعل هذه الوظيفة كانت تابعة لادارة الاوقاف ، خاصة منها القسم المكلف بأحياس المساجد .

(39) نفس المرجع ج 8 ، 103 .

(40) نفس المرجع .

(41) « الصفوة » ج 2 ، ص 2 .

(42) « رسالة المناعي » : ص 121 وما بعدها .

(43) نفس المرجع : ص 144 .

لكن هذه الوظائف تخلى عنها ، « ولم يصح منها فيما بعد سوى تسويد الصحائف » (44) ، ويحتج المناعي بأنه مظلوم وان الاصرم تسبب في طرده .

بيد أن ابن أبي الضياف ، في ترجمته المذكورة له يذكر أن سبب انفصاله عن الكتابة في آخر حياته إنما كان « لعدم مواظبته الخدمة » (45) ، ورغم ذلك فقد شهد صاحب الاتحاف ببراعة المناعي في الكتابة وجمال الخط .

ونستنتج من هذا أن نكبة المناعي كانت في أواخر حياته ، إذ تألب عليه أعداؤه ، وتعاقدوا على هتكه وتحطيمه بعد أن كان مقرباً من بعض أفراد الاسرة الحاكمة خاصة ولى العهد ، قائد المخال ، وقد سافر معه في كثير منها ، فأصبح بائساً ، في حالة يرثى لها ، هو وأولاده .

ويذكر صاحب الاتحاف بؤس المناعي في أواخر حياته وتعاسته فيقول : انه « عاش حليف اقلال واعسار » (46) وتوفى فقيراً .

وهذه الحالة التعيسة هي التي دفعته الى تحرير الرسائل المتعددة الى أصحاب الامر ، يلتمس فيها منهم بعض الخدم .

(44) نفس المرجع : ص 124 .

(45) « الاتحاف » ج 8 ، ص 103 .

(46) نفس المرجع .

قال في رسالة الى مصطفى خزندار ، متضمنة بكنش رقم 17878 :

« تعذرت على طرق الكسب والاحتيال ، وضاق علينا الحال ، ولو اطلعتم على ياطن حال الاولاد والعيال ، وما يقاسونوه من نكد العيش بعد التوسع والدلال ، لغلبتكم دموع الشفقة والرحمة ، واستفزتكم بواعث الهمة ، فان للخدنام حقوقاً يحفظها مثلكم ، ويرغاهم فضلكم ، واضاعت اولادهم مما تشين ، وبأباها الحسب والدين ، ولى منذ أعوام نتردد على بابكم ، ونترامى على تراب أعتابكم ، فلم استنشق ريح اقبال ، ولا واقع حالي مثكم ببال ، مع أنى ما طلبت غالباً ، ولا حاولت حالياً ، وانما نطلب تنظمني في سلك خدمك ، وتستعملنى في صغار خدمك ، أو تضعنى فى أتباع أحمد زروق ، أو سيدى فرحات أمير لواء (47) ، فالكل على حد السواء ، فجميعهم فى خدمتكم ، ومستمد من نور حرمتكم ، ونظركم أعلى ، وبكل جميل أولى » .

وتفيدنا هذه الرسالة افادة جليلة عما عاناه المناعي في آخر حياته من الادقاع ، وبؤس الحال ، مع كثرة الاولاد ، إذ ضاقت في وجهه أبواب الرزق وأغلقت ، وأطررد من خدمته ، وأقصى عن ديوان الانشاء ، ظلماً واجحافاً .

ويمكن اعتبار هذه الرسالة وثيقة هامة عن حياة المناعي اثر انفصاله من ديوان الانشاء ، إذ بقى أعواماً عديدة بدون عمل ، وكان يحاول بدون جدوى أن يجد خدمة يرتزق منها .

(47) امير لواء العسة على صراية الباي من العسكر .

فقد كان منعما برضاء محمد الاصرم ، رئيس ديوان الانشاء ، فربه اليه ، واسكنه بجواره في علو داره ، لكن سرعان ما قلب له ظهر المجن وقلاه ، وأقاله من خدمه العديدة .

وفي رسالة أخرى (48) موجهة الى أمير لواء العسة فرحات يقول انه قد ضاقت به سبيل العيش في بلاده ولم يجد بها متنفسا ولا مكانا رحبا :

« ولولا العوائق التي حالت بيني وبين المراد ، وضيق علي رحب البلاد ، للففت العزيمة وهاجرت ، واعملت الرحلة وسافرت » (49) .

وكان هدف رسائله ، يتمثل في طلب الخدمة :

« وغاية رجائي أن تشرفني ببعض خدمك ، وتنظمني في سلك خواص خدمك ... » (50) .

ويبدو ان المناعي لم يبعث رسالته الادبية الى المشير الاول الا بعد أن استفد كل الوسائل ، ويثس من الجميع ، وحتى من الحياة ، ويرم بالعيش ، وتشاءم ، ونقم على الناس أجمعين ، خاصة على الكتاب ، وموظفي ديوان الانشاء وكل من يتمتع في عهده بمنصب من

(48) الكش رقم 17878 ص 4 .

(49 - 50) نفس المرجع .

عدول وقضاة وكتاب ، وأحسن بنفسه مضطهدا ، مظلوما ، لا سيما وان غيره من الموظفين لم يكونوا في مكانته ، ولا في مقدرته الكتابية وبراعته وذكائه .

قدم الشيخ السنوسي المناعي بقوله انه « أحد أعيان الكتاب ، وغرة جبهة الآداب ، المجيد في النثر مع طول الباع المنفرد بفصاحة اللسان وكثرة الاطلاع » (51) .

لكن ما لبث المترجم ان وصفه بأوصاف ترجح الكفة ضده وتكشف لنا عن بعض الاسباب التي ألبت عليه أعداءه وحساده :

« غير انه بطر وأشر ، وأكثر من الهنر ، واستولت عليه من الاهوية الجنون ، فأكثر من المجون » (52) .

وفعلا فقد اتهم بتهمة المجون ، وشاع في البلاد انه بالغ وأغرق فيه ، ونفر من زوجه ، اخت ابن أبي الضياف ، وكان المؤرخ يشكوه دائما الى الباي فيغض الطرف عنه (53) .

(51) السنوسي : « مجمع الدواوين » ج I ص : 145 - 163 .

(52) نفس المرجع .

(53) سمعت بعض النوادر ، في شأن علاقته مع زوجته وصهره احمد بن أبي الضياف . سأل الباي عن سبب نفوره من زوجته وعن الخلاف بينهما فأجاب : « زوجتي هي احمد بن أبي الضياف لابسا قوفية » فضحك الأمير . إذ كان احمد بن أبي الضياف قميئا غير جميل . (والقوفية : غطاء للرأس كان يضعه النساء بتونس في القرن التاسع عشر) وأخت ابن أبي الضياف التي تزوجها المناعي هي « ددو » وابنتها « محبوبية المناعي » تزوجت محمد العزيز بوعتور ولم تعقب . و « ددو » تزوجها بند المناعي محمد بن عثمان جعيط .

وقدم لنا السنوسى صورة لمجلس من المجالس التى يحضرها
المشاعى (54) .

« فكان اذا حضر المجالس لن ترى غير الآذان منصتة ، لفصيح
أجوبته المسكتة ، والقلوب ترجف من وقاحته ، والناس مع تحذره
منه يميلون لفصاحته ، فكان لمحاسن آلاته ، يلبس على علاته ، ولسعة
روايته ، يصبى الى رويته ، لخلبة عارضته ، يرغب عن معارضته » .

ونفيد من ترجمة السنوسى أيضا أنه كان سخى اليد ، كريما
جدا ، « حتى انه كان أعطى برنسه من أعلى كتفيه لعدم وجدانه ،
عندما قصده بعض الناس ، بمشوم فل حين أبانه ، وبقي من أجل
ذلك فى بيته مقينا ... » (55) .

وهذا يفسر لنا أيضا سبب تبذير المشاعى وافراطه فى صرف
المال فى حاجاته وملذاته وسخائه على قاصديه ،

والده :

لئن كان صاحب الاتحاف قد خص الابن بأسطر قليلة لا تسمن
ولا تقنى من جوع ، فانه أطال فى ترجمة حياة الوالد (56) . كما
أنا تجد ترجمة أخرى له فى شجرة النور الزكية (57) .

- (54) « مجمع الدواوين » : ج I ، ص 154 - 163 .
(55) نفس المرجع .
(56) « الاتحاف » ج 7 ، ص 164 - 166 .
(57) « شجرة النور الزكية » : ج I ، ص 370 .

وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان المشاعى توفى سنة 1247 هـ
1831 - 1832 م ، وكان من الشخصيات العلمية البارزة فى عصره ،
تولى الكتابة فى ديوان الانشاء ، فى ولاية حسين باى (تولى الحكم
من 1824 - 1835) ، واضطلع بالتدريس بجامع الزيتونة فتخرج عليه
نخبة من العلماء والادباء مثل أحمد ابن أبى الضياف ، ومحمد
النيفر (58) ، وخاصة ابنه حمدة « رباه تربية حسنة ، وسلك به
طريق العلم » (59) .

وله تأليف مهمة منها رسالة فى الوباء واسمها « تحفة المؤمنين
وهرشدة الضالين » ألفها لما وقع الطاعون بتونس ونواحيها ، وعم
غواشيتها وضواحيها ، وهى رسالة فقهية ، تتضمن أحكام الطاعون
ولها صبغة جدلية تدل على تبحره فى الفقه وأصوله ولا تزال مخطوطة
فى دار الكتب الوطنية تحت رقم II.856 (60) .

ويعلمنا ابن أبى الضياف أن له رسالة فى الوفاء ، ألفها بطلب
من مخدومه حسين ، « ومن طالعا عرف مقداره » (61) ، ولم نعثر
على هذه الرسالة ، ولعلها عند بعض الخواص ، وربما نسج على
منوالها ابنه فى رسالته هذه الى أحمد باى ، ولا يبعد أن يكون قد
تأثر بها الى حد بعيد ، وقد علق ابن أبى الضياف ملاحظا أن الابن

- (58) انظر ترجمته فى « الاتحاف » : ج 8 ، III - II4 .
(59) نفس المرجع : ص 103 .
(60) وانظر « شجرة النور الزكية » : 370 : ورد فيها ذكر رسالة جدلية بين
المشاعى الاب وشيخ الاسلام المنفى محمد بريم .
(61) « الاتحاف » : ج 7 ، ص 165 .

ونجد في الاتحاف أوصافا له كثيرة منها أنه كان طويل اللسان ،
ثابت الجنان ، بعيدا عن الملق والخضوع ، يعارض الامير
والمأمور (67) .

وتوفى وداره مرهونة في مال نفس به على صاحبه (68) .

« أربي في الصناعة الادبية على والده ، لو ساعده البخت » (62) .

وتلقى الوالد العلم بجامع الزيتونة على أيدي أشهر أساتذتها
منهم صالح الكواش واسماعيل التميمي وابراهيم الزياحي وحسين
الشريف وأحمد بوخريص ، ثم رحل الى المغرب الاقصى (63) ، فأخذ
العلم بفاس على ايدي شيوخ مغاربة يذكر ابن أبي الضياف ومحمد
مخلوف صاحب « شجرة النور الزكية » اثنين منهم وهما التاودي (64)
واليازمي (65) . وتمكن هنالك من الاتصال بصاحب الطريقة
التجانية ، أحمد بن سالم التجاني (1737 - 1815 م) ، ولازمه وأخذ
عنه مباشرة ، وصار من أتباعه ، يختلف كل يوم جمعة الى زاوية الولي
يتغذى بتعاليمه ، ويتشبع بالاوراد والاذكار ، ثم قوى الجاذب الروحاني
الذي يربطه بالشيخ التجاني ، وتأثر به تأثرا سيكون له صدى في
تربيته لابنه .

وآثر رجوعه الى تونس ، وانتصابه للتدريس بالجامع الاعظم ، قام
بخطبة الشهادة والتوثيق ليرتق منها ، وتقدم للشهادة على جامع
صاحب الطابع (66) ، واتصل بالباي حسين ، وتقلد مهمة الكتابة
لديه وسافر معه في محاله عندما كان ولي عهد .

(62) « الاتحاف » : ج 8 ، ص 103 .

(63) « الاتحاف » : ج 7 ، ص 166 .

(64) هو محمد بن الطالب الفاسي التاودي ، فقيه ومفسر ومحدث (م 1793) ، انظر :

كحالة ، « معجم المؤلفين » : ج 10 ، ص 96 .

(65) هو محمد بن عبد السلام اليازمي . هناك اختلاف في حركة الزاي .

انظر : « شجرة النور الزكية » ، ص 381 - القاهرة 1349 .

(66) « الاتحاف » : ج 7 ، ص 165 .

(67) نفس المرجع ، ص 165 .

(68) نفس المرجع ، ص 156 .

آثاره ورسائله

عرف المناعي شاعرا وناثرا . لكننا لا نجد للمناعي الا أشعارا قليلة ، اتهم فيها بالانتحال (69) . يذكر السنوسي أن :
« القصائد المشتهرة عليه أربع ، روائع الفصاحة في رياضها رتع » (70) .
قالها خاصة في التهاني والمدح :

الأولى في تهنئة باش كاتب محمد الاصرم ، عارض بها قصيدة لابن الجهم ، وأولها :

ليالي الحمى، لله ما هجت في صدري لقد قلبت ذكراك قلبي على الجمر
والثانية في مدحه أيضا وأولها

أما لتثوون العين بالدمع لا تهمني فيشفى عيلا مستهما من السقم
والثالثة في شكر نعمة أسداها له باش كاتب ، وهي أحسنها
لصدقها وواقعيتها :

كفأك يا سقم ما أنهكت من بدني أفوق ما نلت من ضعفى ومن وهنى
ويا زمان لى عودى مماطلة رفه على ، خاك الله ، من زمن
أخنى على الجسم بل أودى بساكنه فليس يلوى الى أهل ولا سكن
ألقى بوجهى لأوباش سفاسفة أربى طلابيهم منى على محن
[٠٠٠] منابت وأصول غير زاكية تزهو كناية الخضراء فى الدمن

(69) « مجمع الدواوين » : ج I ، ص 155 - 163 .
(70) نفس المرجع : 154 . وأشعاره توجد أيضا بكنش الريحى رقم 18٠909 .
ص : 140 - 148 . والقصائد الأولى من كنى المناعي رقم 16589 .

ومقدمة هذه القصيدة تذكرنا برسائلته الى أحمد باي ، ولها ضلوة
مبتينة بها .

أما القصيدة الرابعة فهي فائبة في مدح باش كاتب أيضا ومطلعها :

أبى القلب أن يصحو هوى المقل الوطف

فيا لك قلب ما دعاه الى الخلف

ويذكر السنوسي له ، بالإضافة الى هذه القصائد ، قصيدتين
أخرين : الأولى عارض بها قصيدة لمحمد الاصرم باش كاتب ، لكنها
مختلفة عنها ، اذ بينما وعظ باش كاتب الامير بالصبر والعدل
وحذره من مكائد بعض الوزراء ووصاه بوصايا سياسية كثيرة (71) ،
نجد المناعي يضمن قصيدته وصايا من نوع آخر فى التمتع بالحياة :

[٠٠٠] واحرص على فرص اللذائذ كلها

فقد آذن الميقات بالاناس

واشرب على ضوء الهلال فقد بدا

بين السراويل فى ضياء الآس . . .

وهناك أبيات أخرى نظمها فى واقعة حال ، يخاطب فيها أحمد بن
أبى الضياف يلومه على ابعاده عن مجالس الانس التى كان يعقدها مع
خلانه ويلم فيها شمل الاصحاب من كتبة وشعراء ومغنين ، يجتمعون
حول العقار ، يستمعون الى الغناء والشعر ، يقول فى هذه القصيدة :

(71) « العنوان » : ج 2 ، ص 116 - 117 .

أيكنتم مجلس عنى لعمرى وجاهضه بانفاسى يطيب
وما فى حضرتى لوشئت باس ولا ما فاتنى امر غريب
وما اعراضكم عنى سهل فى مضمونه انى الرقيب
[٠٠٠] سابرد بالاملة ما بقلبي وما الشكوى ؟ فى قلبى لهيب
واسمح للحيب بها ولكن على شرط له تعنو القلوب

ونجد هذه القصائد مجموعة فى كنىش الرياحى ، وبعضها نجده
بالكنش المجموع رقم I65II الذى يحتوى ايضا على الرسالة الادبية .
قد آوردنا هذه الامثلة من شعره لابرار نزعتة الشعرية ، والاعراض التى
تغلب عليه ، وهى فى أغلبها أغراض تقليدية .

اما نثر المناعى فهو يتجاوز بكثير شعره اتقاناً وجودة ، ولم نعثر
للمناعى ، عدا الرسالة الادبية ، الا على خمس رسائل موجودة بكنش
رقم I7878 (72) ، ويمكن اعتبارها وثائق عن حياته ، خاصة فى
المدة المرجحة التى أطرده فيها من الخدمة من ديوان الانشاء ، فكتب

(72) كنىش ، صاحبه مجهول ، تحت رقم I7878 . اشترته دار الكتب الوطنية
أخيراً . انظر فيه :

- أ - رسالة المناعى الى أمير لواء : ص : 3 - 4 .
- ب - رسالة المناعى الى مصطفى خزندار : ص : 4 - 5 .
- ج - رسالة احمد بن ابى الضياف الى المناعى فى شأن خطوبة ابنته :
ص : 34 - 35 .
- د - جواب المناعى على هذه الرسالة : ص : 35 - 36 .
- هـ - رسالة المناعى الى الشيخ على الرياحى : ص : 39 - 40 .
- و - جواب على الرياحى للمناعى : ص : 40 .
- ز - رسالة من انشاء المناعى فى أمر ادارى : ص : 80 - 81 .
ص : 27 و 28 .

رسالتين (73) الاولى الى مصطفى خزندار والثانية الى أمير لواء العسة
فرحات ، يطلب منهما خدمة ، وتغلب على الرسالة الاولى صبغة التبكى
والتوجع ، اذ بقى أعواما بدون عمل ، فى يؤس وشقاء هو وأولاده
وعياله ، وأسلوبها لا يختلف كثيرا عن أسلوب رسالته الى احمد
بساى .

لكن أهم هذه الرسائل هى الرسالة التى وجهها الى احمد بن أبى
الضياف فى شأن خطوبة ابنته يوكله فيها لينوب عنه فى عقد قرانها ،
اذ تربيت فى حجر خالها .

وهذه الرسالة تفيدنا عن علاقة الكاتب بصهره قبل تأزمها
وتعكرها ، خاصة وأنها ملأى بعبارات التقدير والاجلال والتعظيم ،
ويقر له فيها بالفضل والكرم والاحسان :

« والحمد لله الذى ذخركم لها كنزا ، ووهب لها من جنابكم شرفا
وعزا ، وحيث قرنتم رأيى برأيكم ، وضربتم لى بحظ من ولايتكم
عليها وولائكم ، وان كنت لا أزن نفسى بالسنجة التى بها وزنتنى ،
ولا أزنها بالفضل الذى زينتنى ، فذلك منكم محض فضل على ونعمة ،
وجوابى عنه ضاعة وخدمة » (74) .

والرسالة الرابعة وجهها الى الشيخ على الرياحى يستدعيه فيها الى
مجلس انس :

- (73) تعرضنا الى هاتين الرسالتين فى ترجمة حياة المناعى . انظر اعلاه
ص : 27 و 28 .
- (74) ستعرض الى حياته الرسالة فى الفصل الذى نعهده لاحد بن ابى الضياف .
انظر المقدمة أسفله : ص : 49 - 50 .

« حيث جعل ما يطرب الارواح ، ويجلب الافراح ، من مغنين ذكى عند النظراء ذكرهم ، وهالة أخوان [سطح] بدرهم ، وكأس انس أنست مديرها ، وزهرة فكاهة اليك شميمها وعبيرها ، منزهة عن المكزات النسوانية وتوابعها » .

أما الرسالة الأخيرة فهي من انشائه في أمر ادارى لاحمد بباى وتطلعنا على اسلوبه النثرى الادارى عندما كان كاتباً بديران الانشاء .

والرسالة الادبية التى بين أيدينا والتى وجهها الى الباي ، هى رسالة تدخل فى باب فن الرسائل التى يتفنن فيها أصحابها فى الاساليب الانشائية مظهرين ابداعهم وبراعتهم .

يعرف صاحب صبح الاعشى (75) هذا النوع بقوله :

« المراد فيها ، أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد ، أو مدح وتقريض ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وسميت رسائل من حيث ان الاديب المنشىء لها ربما كتب بها الى غيره ، مخبراً فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتح به المكاتبات ، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها » .

ورسالة المناعى من هذا النوع ، كتبها لحكاية حاله ، ووجهها

(75) « صبح الاعشى فى صناعة الانشاء » . لابي العباس احمد بن على القلقشندى ط . وزارة الثقافة والارشاد القومى المصرية : ٥٠ ت : ج 14 ، ص : 138 .

للمشئير الاول ، حاكم تونس ، احمد باى ، يمدحه فيها ، ويشكو من أعدائه وحسناده هاجيا اياهم ، كاشفاً عن أمرهم . ولها غايتان : الغاية الاولى هى التقرب من باى تونس ، ومدحه والتمسح على اعتابه لطلب خدمة يرتزق منها وليتصفه الباي من أعدائه .

والغاية الثانية ، التعرض الى أعدائه العديدين بالهجاء والذم والشتيم ، والرد على وشاياتهم المختلفة ، وتبرئة نفسه مما يصون به من المساوى والمثالب والمدافعة عن نفسه وعرضه .

فالرسالة هى أولاً رسالة وفاء وولاء للمشير الاول ، وعلامة طاعة ، وطلب خدمة ، يصور فيها المناعى تعلقه بالباى تصويراً مؤثراً (76) ، فهو أمله الوحيد ، ورأس ماله ، وتناصره على أعدائه فى هذه الفوضى السائدة فى القصر ، بين دسائس تحاك ، وموامرات تدبر ، وشايات تنقل ، وأخلاق زائفة تعتمد الكذب والنفاق والتملق والمراوغة والمناظلة .

مدح المناعى الباي مدحا رصينا ، موضوعيا ، لم يفرط فيه ولم يفرط ، ووصفه بصفات الملك العاقل العادل ، البصير بالامور ، الرصين ، المتأنى فى الحكم (77) . وقد توصل المناعى لغايتها ، فى الدفاع عن نفسه ، بتوخى أسلوب واقعى ناضج ، اعتمد فيه على المحسنات اللفظية والمعنوية ، واستعمل فيه الطرق البلاغية ببراعة

(76) انظر « رسالة المناعى » : الصفحات الاولى خاصة : ص : 85 - 86 ، 158 ، 159 .

(77) انظر ديباجة « رسالة المناعى » : ص : 78 - 79 .

ومرونة من سجع وجناس ، ومطابقة واقتباس ، واستشهاد بالشعر والنثر (78) . ويمكن أن نلاحظ ملاحظتين التنتين متعلقان بنشر المتاعى :

(I) انه نشر فنى ذو صبغة واقعية ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، ولا زخرفة لغوية ولا ترصيف زائف للكلمات والعبارات ، وانما هو صادر عن عاطفة حارة ، صادقة ، ويعبر عن واقع حى ، ضمنه كاتبه كلمات عامية كثيرة : (بشكير ، حصير ، ٠٠٠) (79) ، وأدخل فيه تعابير عامية شعبية مثل (يدور مع العلة) (80) ، واستقل فيه تعابير فقهية ، والروح الجدلية السائدة فى الفقه ليؤدى ما بنفسه من خواطر وأحاسيس وأفكار مثل : « وهل يرد حكم أصله الاجماع » (81) . كما انه أورد امثالا كثيرة ، وأسبغ على أسلوبه طابعا تونسيا ، جدد به اللغة ، فنراها فى قلمه أداة يطوعها للتعبير عن مقاصده ومرامييه وأداء ما يجول بنفسه من عواطف ومشاكل وأفكار ، ونراه يتصرف فى اللغة ، ويبدع فيها ، ويبلغ الذروة فى التعبير الفنى فى بعض المقاطع (82) ، بعد أن كادت العربية تجمد فى عهد الاتراك .

(2) والملاحظة الثانية ترجع الى طريقتة فى الهجاء ، وهى طريقة تعتمد خاصة على التهكم والسخرية وتهويل صفات المهجو ، وهو هجاء لاذع ، يستهدف ضحيته حسيا ومعنويا ، حتى يبلغ أقصاه ، ويبلغ

(78) هذه المحسنات اللفظية والمنوية تخلل كامل الرسالة .

(79) انظر « رسالة المتاعى » : ص 144 ، 151 .

(80) نفس المرجع : ص : 96 .

(81) نفس المرجع : ص : 98 .

(82) نفس المرجع : ص : 132 . مثلا : والقدر يضحك من ورائي .

القعة . ويتجلى فى هذا الهجاء سخط المتاعى على الطبقة الحاكمة ، المتصرفة فى الاموال والعباد . وقد تفنن المتاعى فى الهجاء ، وتوخى الاسلوب الكاريكاتورى واجتهد فى الادلاء بحججه خاصة فى بيان امراضه ، ووصفها وصفا قيما .

ولهذه الرسالة قيمة كبيرة ، فهى تصور لنا تصويرا أدبيا دقيقا العلاقات بين شخصيات ديوان الانشاء ، وتصف لنا الاجواء النفسانية والاجتماعية التى كانت تسود البلاط ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر بتونس ، زيادة على ما فيها من اشارات الى بعض الاحداث التونسية .

وهى رسالة طريفة وجريئة ، تتمثل طرافتها وجراتها فى أن محررها تهجم فيها على شخصيات بارزة فى عصره ، لها مكانتها وجاهاها ، ومركزها الموطن ، فهجاها الهجاء المر ، وأحيانا المقذع ، وتصدى لها بالتقريع والتشنيع ، ونذكر على سبيل المثال أحمد بن أبى الضياف ، ومحمود ابن عياد ، وأباه محمد ابن عياد ، والباجى المسعودى وغيرهم . والرسالة تمثل من جهة أخرى ، مرحلة من مراحل النشر التونسى فى أواسط القرن التاسع عشر بعد أن كاد يبلغ طور الجمود والتحجر من جراء حكم الاتراك .

وهى أخيرا قطعة نثرية تمثل مدى ما وصل اليه النشر الفنى فى تونس من جودة وحذق وتفنن وتعبير واقعى حى ، وهى بالتالى ومضة من ومضات الفكر التونسى وعلامة من العلامات الدالة فى تاريخ النشر بتونس .

وللباحث أن يتساءل متى ألفت هذه الرسالة ؟ لكننا لا نعلم بالضبط متى كتبت ، كما اننا لا نجد تاريخ نسخها الا في نسخة «ب» وهو سنة 1307 هـ .

والرسالة موجهة الى أحمد باى المتوفى سنة 1855 ، وقد كتبها فى آخر حياته ، لما عطل عن العمل وأطرد من ديوان الانشاء .

وفى الرسالة اشارة الى مرض الباي (83) ، لكن لا نعلم اهل هو مرض الوباء ، (الريح الاصفر أو الكوليرة) ، الذى ظهر بتونس فى شهر ديسمبر 1849 (84) ، فتكون الرسالة مكتوبة بعد هذا التاريخ ، بينه وبين عام 1855 سنة وفاة الباي ، أو هو الفالج الذى أصاب الباي فى 31 جويلية 1852 (85) فتكون الرسالة مكتوبة بين سنة 1852 و 1855 سنة وفاة الباي .

(83) انظر « رسالة المناعى » : ص : 135 .

(84) « الاتحاف » : ج 4 ، 128 - 136 .

(85) نفس المرجع : ص : 140 .